التّعدّد اللغوي وانعكاساته على اللغة العربية والفكر والهوية الثّقافية "المجتمع الجزائري أنموذجاً»

الدكتورة صحرة دحمان

جامعة الجزائر٢

الأربعاء ٩ شعبان ١٤٣٩هـ - الموافق ٢٥ نيسان ٢٠١٨م

الملخص

ركزت الدراسة على انعكاسات التّعدّد اللغوي على الحياة اللغوية والفكرية والهوية الثّقافية في الجزائر بالتّطرّق إلى جملة من القضايا. ومعالجة مثل هــذه الموضوعات شائكة؛ لأنّ المجتمع الجزائري يتميّز بجملة مــن الخصــائص لا يمكن لمجتمع آخر أن يشاركه فيها، على الرّغم من وجــود بعــض المظــاهر المشتركة التي تجعله يتقاسم بعض الهموم والمشكلات مع مجتمعــات عربيــة كثيرة وبالخصوص المجتمعات المغاربية. وبالتّالي فإنّ بعض النتــائج يمكــن تعميمها وبعضها الآخر يبقى رهين المجتمع الجزائري.

المداخلة

اللغات هى أدوات للتّعبير والتّواصل فى المجتمعات النّاطقة بها؛ حيث ترتبط بكلّ مناحى الحياة: النّفسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية والفكرية. وتمثّل ظاهرة **التّفرّد اللغوي** (***Unilingue***) الوضعية اللسانية الأكثر قرباً من الطبيعة البشرية؛ لأنّ المتكلّمين فى مجتمع ما يرتبطون وجدانياً -وفى غالب الأحيان- بلغة واحدة تمنحهم القدرة على التّعبير والتّواصل فيما بينهم، فتصير جزءاً من كيانهم وأرواحهم. غير أنّ الواقع يفرض إكراهاته وشروطه؛ لأنّ مجتمعات كثيرة عرفت ظاهرة الازدواج اللغوي (***Bilinguisme***) أو التّعدّد اللغوي (***Plurilinguisme***) لأسباب متباينة، كما هو الحال في كثير من دول العالم.

وإذا كان الازدواج (أو التّعدّد) اللغوي فى بعض المجتمعات هو اختيار فرضته ضرورات راجعة إلى طبيعة المجتمع نفسه، فإنّ وجود هذه الظّاهرة فى بعضها الآخر كان مفروضاً بقوة السّلاح. فأدى ذلك إلى انعكاسات سلبية على اللغة أو اللغات الأصلية، وعلى الفكر والهوية الثّقافية لتلك المجتمعات. وهو ما ستحاول هذه الورقة البحثية أن تركّز عليه.

فقد تعرّض المجتمع الجزائري لعنف وهمجية استعمارية استدمارية نادراً ما شهدتها البشرية؛ ذلك أنّ الاستعمار الفرنسى قلب أوضاع الجزائر رأساً على عقب بتجهيل شعبها وغلق أبواب مدارسها، محاولاً فرنسة الجزائر والجزائريين بتدمير كلّ ما يخدم لغته وهويته. وهو ما أثّر سلباً فى الحياة اللغوية والفكرية والهوية الثّقافية. فمن ٥% فى عدد الأميين غداة الاحتلال الفرنسي إلى ٩٥% من الأميين في الجزائر لحظة خروج فرنسا.

لذلك نريد بهذه المباشرة أن نركّز اهتمامنا على انعكاسات التّعدّد اللغوي على الحياة اللغوية والفكرية والهوية الثّقافية في الجزائر بالتّطرّق إلى جملة من القضايا التي تسهم في معالجة موضوعنا.

ونشير إلى أنّ معالجة مثل هـذه الموضـوعات شـائكة؛ لأنّ المجتمـع الجزائري يتميّز بجملة من الخصائص لا يمكن لمجتمع آخر أن يشاركه فيهـا، على الرّغم من وجود بعض المظاهر المشتركة التي تجعله يتقاسم بعض الهموم والمشكلات مع مجتمعات عربية كثيرة وبالخصوص المجتمعـات المغاربيـة. وبالتّالي فإنّ بعض النتائج يمكن تعميمها وبعضها الآخر يبقى رهين المجتمـع الجزائري.

١. الوضع اللغوي وأبعاد المسألة اللغوية في الجزائر:

عندما نتحدّث عن الجزائر فنحن بالضرورة نتحدّث عن تنوّع لغوي وثقافي وجغرافي، فاللغة العربية الفصحى هي اللغة الرّسمية في البلاد، وهي لغة التّعليم في المراحل الثّلاث: الابتدائية، والمتوسّطة، والثّانوية. كما تعتبر اللغة النّاقلـة للمعارف في التّخصصات الأدبية والعلوم الإنسانية والاجتماعية فـي المرحلـة الجامعية. وتعدّ اللغة الفرنسية اللغة الأجنبية الأولى التي يبدأ الطفل في تعلّمهـا ابتداء من ثماني سنوات (السّنة الثّالثة ابتدائي). غير أنّ احتكاك فئة من الأطفال الجزائريين باللغة الفرنسية يبدأ في سن مبكّرة جداً؛ أي في مرحلـة مـا قبـل التّمدرس في عدد من **رياض الأطفال الخاصّة** التي تتخذ اللغة الفرنسية لغـة ناقلـة للمعارف. فضلاً عن أنّ اللغة الفرنسية هي لغة التعليم (لنقل العلوم والمعارف) في جميع التّخصصات التّكنولوجية والعلميـة كالطّـب والصّـيدلة والهندسـة المعمارية... إلخ.

وإذا تحدّثنا عن التّخاطب اليومى للجزائريين فلا بـد أن نتحـدّث عـن اللهجات العربية الجزائرية واللهجات الأمازيغية؛ ذلك أنّ الجزائر تتميّز بتنوّع لهجى، حيث تتوزّع اللهجات العربية، شرقاً وشمالاً وغرباً وجنوباً ووسطاً، وهو ما يجعل لهجاتها تعرف بحسب المنطقة الجغرافية، حيث يتشكّل الهيكل العـام

للعاميات الجزائرية من كلّ اللهجات الإقليمية التي تختلف من منطقة إلى منطقة أخرى، ويمكن تقسيمها كما يلى:

- المنطقة الشّرقية، وتضم لهجات مثل: سطيف، وقسنطينة، وعنابة... إلخ.
- المنطقة الوسطى، وتضم العاصمة الجزائرية وضواحيها من القرى والأرياف.
- المنطقة الغربية، وتضم لهجات مثل: وهران، ومستغانم، وتلمسان... إلخ.
- المنطقة الصّحراوية، حيث تشترك لهجاتها مع مجموعة من اللهجات العربية الممتدّة من شبه الجزيرة العربية إلى المحيط الأطلسي في عدد من الخصائص[1].

وتجب الإشارة إلى أنّ هذه العاميات تتقاسم جملة من الخصائص العامة تجعلها تُعرف بأنّها تنتمى إلى إحدى اللهجات الجزائرية. كما أنّها تختلف فى بعض السّمات الأخرى فتجعل اللهجة العاصمية مثلاً تتميّز ببعض الصفات الصوتية عن اللهجة الجيجلية، أو اللهجة القسنطينية، وتجعل اللهجة العنابية أو التّبسية (تبسة مدينة جزائرية تقع فى أقصى الشّرق الجزائري، وهى أقرب إلى اللهجات التّونسية) تتميّز عن لهجات القطاع الوهراني والتّلمساني ببعض الصّفات وهكذا.

كما يبدو **تمركز اللهجات الأمازيغية في** بعض المناطق المحدّدة **واضحاً** كالشاوية في منطقة الأوراس، والقبائلية في تيزي وزو وبجاية والبويرة وبرج بوعريريج وجزء كبير من منطقة بومرداس. وتتمركز اللّهجة الترقية في جنوب الصحراء

---

(1) Khaoula Taleb Ibrahimi, ***les Algériens et leur(s) langue*(s)** Elément pour une approche sociolinguistique de la société algérienne، Les Editions El hikma, Alger, 1997, p.27.

وانظر أيضاً بحثنا في الماجستير: صحرة دحمان، **ظواهر الاحتكاك اللّغوي في سلوك النّاطقين الجزائريين (الوسائل السّمعية-البصرية نموذجاً)**، جامعة الجزائر، معهد اللّغة العربية وآدابها، ١٩٩٩، ص.٧.

كتمنراست وغيرها؛ حيث يسكن بدو الطوارق. في حين نجد اللهجة الميزابية في مدينة غرداية وما جاورها.

وتختلف هذه اللهجات فيما بينها اختلافاً بيّناً، على مستويات اللغة، خاصّة على المستويين: الصوتى، والمعجمى؛ ذلك أنّ لكلّ لهجة معجمها الخاص وأصواتها التى تشترك فى بعضها مع اللهجات الأخرى، وتختلف فى بعضها الآخر. غير أنّها، بشكل عام، تتقاسم جملة من الصفات العامة. وتجب الإشارة إلى أنّ توزّع المتكلّمين باللهجات الأمازيغية لا يحدث بهذا الشّكل الصارم، إذ قد نجدهم فى كلّ مناطق الجزائر.

وفضلاً عن ذلك كلّه، فإنّ اللغة الإنجليزية هى اللغة الأجنبية الثّانية التى يبدأ الطفل فى تعلّمها فى مرحلة المتوسّط، غير أنّها اليوم بدأت تأخذ مكاناً متميّزاً لدى فئة الشّباب والمتعلمين والمجتمع بشكل عام. كما أنّ بعض المدارس الخاصة تتخذها لغة أجنبية ثانية فى مرحلة التّعليم الابتدائى.

ولكن، **ما هي أبعاد المسألة اللغوية في الجزائر؟** وكيف بدأت القصة؟ وإلى أين وصلت؟

الأمازيغ (البربر) كما أشار إلى ذلك المؤرّخ الجزائري عثمان سعدي "**عرب عاربة**، استقرّوا بالمغرب العربى ضمن هجرات سابقة لهجرة الكنعانيين الفينيقيين، وللفتح الإسلامى، على أساس أنّهم عرب قدامى أو عروبيون؛ أي ساميون وفق التّسمية غير العلمية. توسّعت هذه الهجرات على الخصوص مع بداية المرحلة الدفيئة الثّالثة منذ ثمانية عشر ألف سنة قبل الميلاد [١٨٠٠٠ سنة ق.م]"[(١)].

وقد تبلورت **لغة الثّقافة والعبادة وهي اللغة العروبية الكنعانية** منذ دخول الكنعانيين الفينيقيين العروبيين المغرب في النّصف الأخير للألف الثّانية قبل الميلاد، وهي

---

(١) عثمان سعدي، **الجزائر في التاريخ**، دار الأمّة للطباعة والنشر، الجزائر، ط/١، ٢٠١٣، ص.١٩.

اللغة التي أصبحت في ما بعد اللغة الفصحى بالمغرب، "وهي محاطة بلهجات شفوية قحطانية هي اللهجات الأمازيغية البربرية... لقد كان مجيء الكنعانيين وتأسيسهم لحضارة قرطاج عملاً حاسماً في تاريخ المغرب القديم... فاستعمل الأمازيغ اللغة الكنعانية كلغة حضارة وثقافة مكتوبة بالحضر في الثقافة، والعبادات ودواوين دولهم. واستمروا على ذلك إلى أن جاء العرب المسلمون باللغة العدنانية فحدث الرّبط بين اللغة الكنعانية العروبية، واللغة العدنانية العربية. وهذا هو الذي يفسّر لماذا تمّ تعريب المغرب في وقت قصير وقياسي"(١).

ومنذ الفتح الإسلامي تعايشت اللغتان العربية والأمازيغية وعرّبت مناطق كثيرة، لذلك تعتبر الجزائر بلداً عربياً أمازيغياً منذ هذا الفتح في القرن السّابع "فقد حمل الفاتحون معهم اللغة والدين ممثلين في القرآن الكريم الذي هو قوام الدين، ودستور سياسة، وبحر أخلاق، وقاموس لغة، وديوان ثقافة، لذلك بني الفتح على الثّقافة في يوم الفتح نفسه"(٢).

ومنذ ذلك الوقت وفي جميع العصور الإسلامية، التي مرّ بها المغرب الكبير، والمغرب الأوسط (الجزائر) وإلى غاية القرن التّاسع عشر، لم تقل العناية باللغة العربية وعلومها وآدابها، وبقيت المساجد في المدن حافلة بالأساتذة والمتعلّمين الصّغار والكبار، وبقيت الزّوايا بالقرى جامعة للمشايخ والطّلبة. وقد عرفت الجزائر في العهد العثماني انتشار المدارس الابتدائية في كلّ مناطق الجزائر حتى النّائية منها –على الرّغم من تدهور الحالة السّياسية في فترات متباينة من هذا العهد– فكانت كثرة المدارس مثار انبهار وإعجاب زائري الجزائر في العهد العثماني وهو ما أشار إليه المؤرّخ الجزائري أبو القاسم سعد

---

(١) الجزائر في التّاريخ، ص٢٣.

(٢) عثمان الكعاك، **مراكز الثّقافة في المغرب**، القاهرة، ١٩٥٨، ص.١٢.

الله (رحمه الله) قائلاً: "فقد كثرت في الجزائر المدارس الابتدائية حتى كان لا يخلو منها حي من الأحياء في المدن، ولا قرية من القرى في الرّيف، بل إنّها كانت منتشرة حتى بين أهل البادية والجبال النّائية. وهذا ما جعل جميع من زاروا الجزائر خلال العهد العثماني ينبهرون من كثرة المدارس بها وانتشار التّعليم وندرة **الأمية بين السّكان**"[1] وقد أشرنا سابقاً إلى نسبة الأمية في الجزائر غداة الاحتلال الفرنسي.

وقد أشاد كلّ من الرّحالة المصري عبدالباسط بن خليل والكاتب المغربي الحسن الوزان بهذه الكثرة. وأشاد الوزان خصوصاً بعناية أهل تلمسان بتشييد المدارس والإنفاق عليها، وقد كان للأوقاف والصدقات أثر واضح في انتشار المدارس والتّعليم[2]. وكانت دروس الجوامع الجزائرية "تضاهي، بل قد تفوق أحياناً، دروس الجامع الأموي بدمشق والحرمين الشّريفين لتنوّع الدراسات فيها وتردّد الأساتذة عليها من مختلف أنحاء العالم الإسلامي. فدروس سعيد قدورة وعلي الأنصاري وأحمد بن عمّار بالعاصمة ودروس سعيد المقري في تلمسان [وغيرهم كثيرون] كانت مضرب الأمثال في العمق والإحاطة والرّقي"[3].

لكن وضع التّعليم بدأ في التغيّر بمجرّد أن وطئت أقدام المستدمِر الفرنسي أرض الجزائر، وشيئاً فشيئاً بعد أن كان التّعليم منتشراً، وكانت نسبة الأمية متدنية جداً، قلّ التّعليم وانحصر في أماكن معدودة ومحدودة، وذلك بشهادة الأعداء أنفسهم. وقد حارب الفرنسيون التّعليم العربي في الجزائر بشتى الطرق والوسائل إلى أن نشر لغته بقوة السلاح.

---

(١) أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثّقافي**، دار الغرب الإسلامي، ط١، بيروت، ١٩٩٨، ص٢٧٤.

(٢) يُنظر: المرجع نفسه، ص٢٧٤–٢٧٥.

(٣) أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق، ص٢٧٤.

٢. الجزائريون والازدواج اللغوي (التّعدّد اللغوي):

عرّف قاموس **تعليمية اللغات** الازدواج اللغوي بأنّه "الحالة التي يستعمل فيها الأفراد أو الجماعات لغتين أو أكثر بصفة متنافسة، مثلما يستخدم أحد سكّان الكبيك بكندا اللغتين الفرنسية والإنجليزية معاً"[١]. ويرى (***J.B Marcellesi***) أنّ ظاهرة الازدواج اللغوي لها معان مختلفة أهمها:

- سياسة دولة من الدول باعتماد لغتين رسميتين أو أكثر.
- اتجاه نظام تربوي معيّن نحو ضمان تحكّم متكافئ للغتين مختلفتين[٢].

وقد استُنِد في تحديد مفهوم الازدواج اللغوي إلى درجة تحكّم الأفراد أو الجماعات باللغات الموجودة في المجتمع. وقد حدّد **أحمد بوكوس**[٣] عدّة أنواع من الازدواج ارتكازاً على المقياس القائل: بأنّه لا يمكن الحديث عن ازدواج لغوي ما لم يمس الشّعب كلّه أو أغلبه وهو ما يعرف بازدواج الأغلبية [٤](Bilinguisme de masse)، حيث لا يرتبط الازدواج ببعض الأفراد فقط. وهذه الأنواع هي:

١. **الازدواج المركّب أو الممزوج**، وهو النّوع الذي تستخدم فيه اللغتان معاً، أو في حال وجود **التناوب اللغوي** (Code Switching).

٢. الازدواج **المنظّم أو المنسّق**، وهو الازدواج الذي تستعمل فيه اللغتان بشكل منظّم ومنهجي، حيث لا تظهر اللغتان في نفس الوقت، بل تظهران حسب ما تقتضيه الوضعيات الخطابية، ذلك أنّ المتكلّم يستعمل اللغة ١ – في مواقف معيّنة، ويستعمل اللغة ٢ – في مواقف أخرى.

---

(1) D. Coste et R. Galison, Dictionnaire de didactique des langues, Hachettes, Paris, p.69.

(2) J.B Marcellesi, "Bilinguisme, Diglossie, Hégémonie, problème et taches " in Langages, n° 61, p.5.

(3) A .Boukous, Bilinguisme, Diglossie et domination symbolique, p.41 - 42

(٤) استخدم هذا المصطلح من قبل مارسلسي (J.B Marcellesi)، ينظر: المرجع نفسه، ص٥.

٣. الازدواج اللغوي **المتعادل أو المتماثل**، وهي الوضعية التي تتسم بتحكم متساو للغتين.
٤. الازدواج **غير المتعادل أو غير المتماثل**، وهي الوضعية التي تتسم بتحكم غير متساو للغتين.
٥. ازدواج **الفهم** (أو الإدراك) **والتّعبير**، وهي الوضعية التي تكون فيها اللغتان مفهومتين ويمكن التّعبير بهما في حدود معيّنة.
٦. ازدواج **الفهم** (أو الإدراك)، وهي الوضعية التي تكون فيها إحدى اللغتين مفهومة عند سماع الحديث ولكن لا يمكن استعمالها في الكلام والتّعبير.

ويتحدّد النّوع الثّاني من الازدواج، وهو **الازدواج الفردي** بأمرين اثنين، وهما:

١. **طريقة اكتساب الفرد للغتين وزمن هذا الاكتساب.**
٢. **درجة إتقانه للغتين.**

فمزدوج اللّغة هو شخص اكتسب لغتين مختلفتين في زمن واحد وبدرجة متساوية من الإتقان ويمكنه استعمال النّظامين بشكل مريح وسهل[١]. ويرى (W. Mackey) أنّ **درجة الازدواج اللغوي** تتغيّر تبعاً لاستعدادات الفرد المزدوج، حيث يمكن لبعض الأشخاص أن يقرأوا باللغتين بشكل مسترسل ومفهوم مثل أيّ أحادي لغة، غير أنّهم لا يستطيعون استعمالها بنفس السّهولة في الحديث[٢].

غير أنّ الحديث عن التنوّعات اللغوية في الجزائر، وفي غيرها من البلدان العربية، يفرض علينا التّطرّق إلى ظاهرة مشابهة لظاهرة **الازدواج اللغوي** –ولكنّها تختلف عنها في العلاقة القائمة بين التّنوعات اللغوية– وهي **الثنائية اللغوية** (***Diglossie***) وهي تشمل العلاقة بين لغة **أصل** ولهجاتها التي **تفرّعت**

---

(١) ينظر: صونية بكال، "**الازدواجية اللغوية**"، مجلّة اللغة الأم، ص١٣١.
(2) W. Mackey, Bilinguisme et contact des langues, p.10.

عنها. وقد دخل هذا المصطلح في مجال اللسانيات الاجتماعية بعد ظهور مقال **فرجسون** (***Ferguson***) الشّهير عام ١٩٥٩. غير أنّ المصطلح ظهر قبل ذلك عند (J. Psichari) لوصف اللغة اليونانية في نهاية القرن الماضي [١٨٨٦-١٩٢٨]، وظهر عند (W. Marçais) لوصف وضع اللغة العربية [١٩٣٠-١٩٣١][١].

وتجب الإشارة إلى أنّ نموذج فرجسون يركّز على العلاقة الثنائية التي تقوم بين القطب الأول (الأصل) الذي هو الفصحى، والقطب الثّاني (الفرع) الذي هو العاميات (الدوارج)، حيث يتميّز نموذجه **باستقرارالوضع الثّنائي** الذي يختص فيه الأصل بمجالات معيّنة، ويختص الفرع بمجالات أخرى. غير أنّ الواقع اللغوي يثبت أنّ هذا التّقسيم ربّما ينطبق على العربية في فترات سابقة من فترات ازدهار الفصحى؛ حيث لم تكن هناك لغات أخرى تنافسها؛ ذلك أنّ التّفاعل المستمر بين الفصحى والعاميات أدى إلى ظهور مستويات وسطى تتقاسم الممارسة اللغوية للمتكلّمين. فقد ذكر فرجسون أنّ الخطب الدينية والوعظ في المساجد يتم بالمستوى الفصيح (المستوى الرّفيع). ولكن أئمة المساجد والدعاة -في أيامنا هذه- يلجأون إلى استخدام العاميات (المستوى الوضيع) لشرح الأحاديث النبويّة الشّريفة والآيات القرآنية، وشمل ذلك الأحاديث الدينية والحصص ذات الطّابع الديني في وسائل الإعلام. وقد انتقلت هذه الاستعمالات اللغوية إلى الصحافة المكتوبة: في بعض الأعمدة اليومية والرسوم الكاريكاتورية[٢].

---

(١) ينظر: J.Dichy, La pluriglossie de l'arabe نقلاً عن: L'écriture dans la représentation de la langue, et la lettre et le mot en arabe, Doctorat d'Etat, Lyon II, 1990.

(٢) يُنظر: صحرة دحمان، **ظواهر الاحتكاك اللغوي**، ص٣٤.

ويمكن التّمثيل لهذه المستويات في الشكل[1] الآتي:

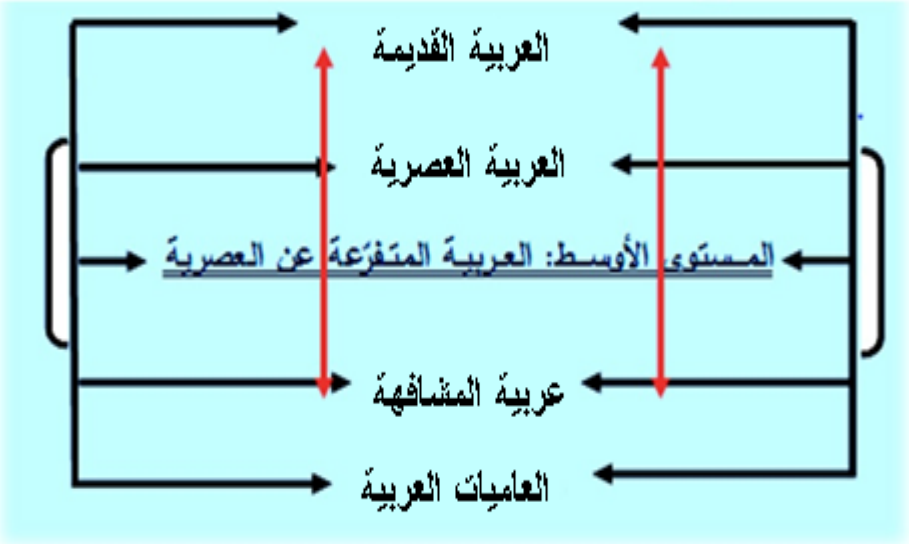

وفضلاً عن ذلك كلّه، فإنّ اللهجات الأمازيغية (البربرية) تمثّل جانباً مهماً من جوانب الممارسة اللغوية خاصّة في مناطق تمركزها، وفي وسائل الإعـــلام المسموعة والمرئية. كما أنّ إذاعة القرآن الكريم تلجأ إلى استخدام الأمازيغيات في بعض الأحاديث الدينية التي تتوجّه إلى النّاطقين بالأمازيغية خاصّة أولئـــك الذين يعيشون في بيئة لا تتحدث إلاّ الأمازيغية، مثلما تلجأ ذات الإذاعـــة إلـــى العامية عندما تتوجّه إلى الأميين النّاطقين بالعربية.

وتجب الإشارة إلى أنّ لفظتي: ازدواج لغوي، وثنائية لغوية مترادفتان في الأصل –وهو ما يراه (J.M.Charpentier)–ويمكن أن تدلاَّ على شيء واحد،

---

(١) استخدمْت هذا الشكل في رسالتي للماجستير، ينظر: صحرة دحمان، **ظواهر الاحتكاك اللغوي**، ص ٣٧ وما بعدها.

غير أنّه تمّ التّطرّق إليهما من زوايا متباينة ممّا نتج عنه **تخصيص كلّ مصطلح للدلالة على مفهوم خاص**. وذلك قَصْدَ التّفريق بين الظواهر المختلفة التي ترتبط باهتمامات اللسانيات الاجتماعية(١).

لذلك حاولنا ألاّ نأخذ بالآراء التي وسّعت المفهومين وجعلت الواحد يدل على الآخر. وفضّلنا -كما يرى أندريه مارتنيه- الاحتفاظ بمصطلح الازدواج اللغوي الذي يغطي "جميع أشكال التّعايش بين لغتين. ومثال ذلك اللغة الفرنسية والإنجليزية فكلتاهما لغة قومية ذات شأن كبير، لكنّهما في بلد مثل كندا لا يمكن منحهما قدراً متساوياً من الاعتراف، فهل ينبغي في ظل ما ذكرناه أن نتكلّم عن وجود [ثنائية لغوية] في إقليم الكبيك"(٢).

ويمكننا من خلال دراسة مظاهر الازدواجية والثنائية وضع خطاطة تقريبية للممارسات اللغوية في الجزائر حسب الآتي:

التّنوعات اللغوية / مجال الممارسة	العربية الفصحى	العاميات العربية	الفرنسية	الأمازيغية	المستويات الوسطى
الأسرة		×	×	×	
الأصدقاء		×	×	×	
المحيط العام (الشّارع)	×	×	×	×	
الدين (المساجد، الخطب والأحاديث الدينية)	×	×		×	×

(١) يُنظر: *J.M.Charpentier, **Quand et où parler de bilinguisme et de diglossie***, p.71.

(٢) أندريه مارتيني، تر: أحمد الحمو، **مبادئ اللسانيات العامّة**، ص١٤٩.

التّعليم	في المراحل الثّلاث	×		× (كلغة أجنبية)	×	×
	العالي	×		×(*) (لغة أجنبية/ لغة ناقلة للعلوم)		×
وسائل الإعلام	الإذاعة	×		×	×	×
	التلفزة	×	×	×	×	×
	المكتوبة	×		×		
العمل(التعامل اليومي)			×	×	×	
الوثائق الحكومية	قطاع العدالة	×				
	الأحوال المدنية والشّخصية	×				
	القطاعات الاقتصادية والبنوك			×		

(*) كما أشرنا سابقاً، فإنّ اللغة المسيطرة على الشّعب التّكنولوجية والعلمية هي اللغة الفرنسية.

ومن خلال هذه الخطاطة التّقريبية يمكن استنتاج جملة من الأزواج اللغوية أو الثّلاثيات اللغوية الآتية:

- **العربية الفصحى/العربية الدارجة، قد يلجأ المتكلّم** في بعض الوضعيات الخطابية – التي يغلب عليها الفصحى– إلى استعمال بعض الكلمات أو العبارات أو الجمل القصيرة **بالعربية الدارجة** لتعميم الفائدة؛ ذلك أنّ فئات المجتمع متباينة (المتعلّم، أو متوسّط التعليم، أو الأمي)، وهدف المتكلّم التأثير في أكبر عدد ممكن من المستمعين لخطابه. ومثاله ما يحدث في عدد من الحصص التلفزيونية والإذاعية السياسية والدينية والتّربوية، كما أنّ هذه الممارسة اللغوية يمكن أن تظهر عند النّاطقين المعرّبين الذين تلقوا تكويناً عربياً في الفترة الاستعمارية، والذين يُعْرَفون بالمعرّبين.
- **العربية الفصحى/المستويات الوسطى**، مثل ما يحصل في بعض الحصص الدينية أو في التّعليم عندما يلجأ الأساتذة إلى تبسيط بعض المفاهيم في المناطق التي تسيطر فيها العاميات العربية... إلخ.
- **العربية الفصحى/الأمازيغية**، مثل ما يحصل في بعض الحصص الدينية أو في التّعليم عندما يلجأ المعلّمون والأساتذة إلى تبسيط بعض المفاهيم في المناطق النّاطقة بالأمازيغية... إلخ.
- **العربية الدارجة/الأمازيغية**، في مناطق احتكاك التّنوعين العربية/الأمازيغية وهي في الغالب مناطق تجاور؛ حيث يتقن النّاطقون فيها العربية العامية وإحدى اللهجات الأمازيغية مثلاً: خنشلة، وأم البواقي، وغرداية، وبرج بوعريريج حيث تتقاسم الشّاوية/ أو الميزابية/ أو القبائلية استعمالات النّاطقين ويمكن أن يسود تنوع لغوي، أو يحصل بينهما انتقال في نفس الحديث.

- **العربية الفصحى/الفرنسية**، ربّما تظهر في حديث المثقفين مزدوجي اللغة في بعض الحصص التّلفزيونية والإذاعية، وهي ممارسة لغوية قليلة التواتر، وفي الغالب لا يحصل التناوب بين الفصحى الخالصة والفرنسية، بل بين أحد مستويات العربية واللغة الفرنسية، لأنّ عدد مزدوجي اللغة عربية فصحى/فرنسية لا يمثلون نسبة كبيرة جداً.
- **العربية الدارجة/الفرنسية**، تظهر عند النّاطقين الذين لا يتقنون الفصحى وتعلّموا في المدارس الفرنسية في الفترة الاستعمارية، وهم الذين يُعْرَفون بالفرانكفونيين.
- **المستويات الوسطى/الفرنسية**، تظهر في الغالب في حديث المتعلمين المتفرنسين الذين تلقوا تكويناً باللغة الفرنسية، والذين تتغلّب ملكتهم الفرنسية على ملكتهم العربية؛ حيث تضطرهم بعض الوضعيات الخطابية إلى اللجوء إلى مستوى وسيط يجمع بين الفصحى والدارجة[1] كما يحصل في عدد من اللقاءات الرسمية وبعض الحصص التلفزيونية الموجهة لعامة النّاس كحصة الإرشادات الطبية.
- **العربية الفصحى/العربية الدارجة/الأمازيغية**، يظهر التّناوب بين هذه التنوّعات عند عدد من رجال الدين الذين يمتلكون العربية بمستوياتها وإحدى اللهجات الأمازيغية.
- **العربية الفصحى/العربية الدارجة/الفرنسية**، تظهر هذه الممارسة اللغوية في وضعيات خطابية تسيطر عليها الفصحى، ولكنّ المتكلّم يجنح إلى العربية

---

(١) للاستزادة ينظر بحثنا في الماجستير: صحرة دحمان، **ظواهر الاحتكاك اللغوي**، ص٤١ وما بعدها.

الدارجة أو اللغة الفرنسية لأغراض مختلفة كتغيير المخاطب أو تخصيصه بالحديث[1]، إذا كان المخاطَب شخصاً لا يحسن الفصحى، ولكنّه يتقن العربية الدارجة أو الفرنسية أو كلتيهما. وقد يُعكَس الأمر في وضعيات خطابية أخرى تسيطر عليها الفرنسية، فيجنح المتكلّم إلى العربية الدارجة أو الفصحى إذا كان المخاطب يتقن العربية بمستوياتها.

- **الأمازيغية/العربية/الفرنسية،** تظهر هذه الممارسة اللغوية في وضعيات خطابية تسيطر عليها الأمازيغية، ولكنّ المتكلّم يجنح إلى العربية أو اللغة الفرنسية لأغراض مختلفة كتغيير المخاطب أو تخصيصه بالحديث إذا كان المخاطَب شخصاً يتقن العربية أو الفرنسية أو كلتيهما. وقد يُعكس الأمر في وضعيات تسيطر عليها العربية، فيجنح أحد المتكلّمين إلى الأمازيغية أو الفرنسية لأنّ مخاطِبه يتقن الأمازيغية أو الفرنسية أو كلتيهما.

ومن خلال هذا **المسح التقريبي للممارسات اللغوية في الجزائر،** واستناداً إلى مفاهيم الازدواجية والثنائية اللغوية يمكن استنتاج ما يلي:

- المجتمع الجزائري هو مجتمع متعدّد الاستعمالات اللغوية، حيث تتقاسم الخريطة اللغوية كلاً من العربية الفصحى ولهجاتها المختلفة والأمازيغية (البربرية) بلهجاتها المعروفة وهي: القبائلية، والشّاوية، والميزابية، والتّرقية، وتبرز اللغة الفرنسية في التّعليم ووسائل الإعلام والمؤسسات الاقتصادية كالبنوك و... إلخ. فضلاً عن ممارستها من قبل فئة من المجتمع في المشافهة اليومية.
- إنّ الازدواج اللغوي (عربية/فرنسية) لا يشمل كلّ المجتمع، بل يخص الأفراد، وبالتّالي لا يمكن الحديث عن **ازدواج أغلبية** بل هو **ازدواج أفراد؛** أي

---

(١) يُنظر بحثنا في الماجستير: **ظواهر الاحتكاك اللغوي،** ص١٨٠.

ازدواج أقلية. ونشير أننا عندما نتحدّث عن ازدواج الأفراد فإنّه يمكننا وصف بعضهم **بأنصاف مزدوجين** (Semi lingues)؛ لأنّهم لا يتحكّمون جيّداً في الفصحى، ولا يتحكّمون جيّداً في الفرنسية أو أنّ ملكتهم في إحدى اللغتين أقوى من اللغة الثّانية.

- وجود أحاديي اللغة النّاطقين بالعربية، ذلك أنّ **أحادية اللغة** تقتصر على **العربية الدارجة** وهي ممارسة لغوية قد تطغى في بعض المناطق النّائية وعند فئة الكبار الأميين، أو الفئة التي تلقت تعليماً بسيطاً في المدارس القرآنية في سن مبكّرة، حيث تمّ حفظ بعض السّور القصار التي تستعمل في أداء الصلاة. وتوجد –بشكل عام– في الأرياف والمدن الصغرى التي ليس فيها احتكاك كبير لمتعدّدي اللغات (التنوّعات اللغوية) وهو عكس ما يحصل في العاصمة وما جاورها وفي المدن الكبرى والسّاحلية؛ حيث يقع أكبر اختلاط وتداخل لغوي من كلّ مناطق الجزائر، وقد أدى ذلك إلى تأثير المتكلّمين بعضهم في بعض.
- قد نتحدّث عن أحاديي لغة أمازيغيين على مستوى المشافهة اليومية، حيث تسيطر الأمازيغية على ألسن الكثيرين في بعض المناطق النائية النّاطقة بالأمازيغية؛ ولكنّهم يستعملون العربية لأداء الصلاة والشّعائر الدينية.
- قد نتحدّث عن الازدواج اللغوي بين العربية وإحدى الأمازيغيات بحكم سيطرة العربية على المحيط العام في أغلب مناطق الجزائر، وبفعل الاحتكاك الحاصل بين النّاطقين بالعربية والنّاطقين بالأمازيغية في بعض المناطق، أو بحكم التّزاوج والنّسب في كثير من الحالات.

١. انعكاسات التّعدد اللغوي على الفكر والهوية الثّقافية الجزائرية:

لا أحد منّا اليوم يُنكر أهمية تعلّم اللغات الأجنبية، لأنّها تفتح الباب واسعاً أمام المتعلّمين والمثقّفين للاستفادة من التّراث الإنساني والعالمي من أجل التّبادل الثّقافي والحضاري؛ ولكن إن أصبحت هذه اللغات معاول هدم لتواريخ وثقافات شعوب وهويات فهذا الذي يحتاج منّا إلى وقفات طويلة ودراسات نقدية تسهم في نشر الوعي بين طبقات الشعوب العربية والإسلامية؛ ذلك أنّ دول العالم المتطوّر قد هيمنوا على دول العالم المتخلّف بفعل قوّتهم الاقتصادية والتّكنولوجية والعلمية؛ وتبع هذه الهيمنة هيمنة لغوية، وأصبحت لغات كثيرة مهددة بالاندثار بحكم اختيارات لغوية قائمة على أساس التّبعية العلمية والتّكنولوجية. وهو ما تعاني منه الشّعوب العربية التي فسحت المجال واسعاً للغات أجنبية تتحكّم في مصير أجيال كاملة.

تسيطر في الوقت الرّاهن اللغة الإنجليزية سيطرة تكاد تكون تامّة على الوسائط والاقتصاد والتّجارة والمال والأعمال. وأصبح امتلاك آليات اللغة الإنجليزية سبباً مباشراً في التطوّر المعرفي والتّكنولوجي. ولم يقتصر الأمر على ذلك بل تعداه إلى السّيطرة الثّقافية تحت مسمى **العولمة الثّقافية** التي "تحوّل **الهوية الثقافية** من إطارها القومي والخاص إلى **الاندماج** والتّفاعل والتّكامل مع **الهويات الثقافية الأخرى** في ظل الهوية الثّقافية الأحادية وإن كانت **العولمة الثّقافية** تفرض نفسها حتّى باستخدام القوة، فتصبح العولمة الثّقافية بذلك فرض منهج وثقافة غربية أمريكية بالهيمنة على العالم وشعوبه وأفراده، مسخاً لهم وإهداراً لخصوصياتهم إلى درجة ألا يكون لأيّ مجتمع ثقافة ذاتية وهوية شخصية أو خصوصية"[١].

---

(١) محمّد زغو، **أثر العولمة على الهوية الثقافية للأفراد والشّعوب**، الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، العدد ٤، ٢٠١٠، ص٩٣-٩٤.

وتعدّ الجزائر واحدة من الدول التي حاولت جاهدة أثناء الاستعمار الحفاظ على إرثها التّاريخي والثّقافي، وعلى الرّغم من كلّ محاولات المسخ التي تعرّضت لها إلا أنّها حافظت على الكثير، ولكنّها ما استطاعت أن تنجو نجاة كاملة، فالآثار باقية وبليغة، وأخطر هذه الآثار عدد من أبنائها الذين يسهمون **بشكل مقصود أو غير مقصود** في بقاء لغة غريبة عن المجتمع، هي لسان حالهم، يتباهون بها ويعتبرونها لغة الرقي والحضارة. وهذه الطبقة هي نتاج لسياسَتَيْن: الأولى سياسة استعمارية – استدمارية/فرنسية، والثّانية سياسة لغوية وتعليمية بعد الاستقلال.

لذلك نعيد قول ما قلناه في مقال سابق[1] إنّ أهم أثر من الآثار النّاجمة عن التّعليم بالفرنسية وعن الأحادية اللغوية في التّعليم العالي في التّخصصات العلمية والتّكنولوجية هو **توهين الروابط الاجتماعية**. فإذا كان بعض علماء الغرب، من أمثال **إيدوارسابير** وتلميذه **بنيمين وورف**، هم الذين توصّلوا إلى الحقيقة القائلة إنّ **اللّغة مرآة تعكس روح الأمة** وتنفخ هذه الروح في المجتمع الذي يتكلّمها، فإن أفراده لا يمكن أن يكونوا على قلب واحد إذا وجد في هذا المجتمع أكثر من لغتين: لغته الوطنية القومية ولغة أجنبية عنه، لأنّ **وضعية التّفكيك** تكون قد **حلت** محل **وضعية التأليف**، وإذا دخل المجتمع في هذا الصراع بين **الأتباع**، للغة الآخر **بحجة قدرة اللّغة الأجنبية** على مسايرة التّطور وضعف اللّغة الوطنية لأنّها في نظرهم تعكس أسلوباً قديماً للحياة، **والمحليين**، الذين يبحثون عن مصادر القوة لتصحيح الوضع؛ يبدأ تصدع المجتمع من جراء تناقض المقومات الثّقافية للطّوائف الاجتماعية، وتفتقد الثّقة المتبادلة ويحصل ما لا تُحمَد عقباه[2]. وعليه فإنّ **التبعية اللّغوية والثّقافية، هي أخطر ما يهدّد الهوية الثّقافية الجزائرية واللحمة الوطنية كما أنّها خطر يهدّد**

---

(١) ينظر: صحرة دحمان، **أثر تعليم اللغات الأجنبية في اللغة العربية**، ص٩٣-٩٤.

(٢) ينظر: محمّد الأوراغي، **التعدّد اللّغوي انعكاساته على النسيج الاجتماعي**، ص٥٧. (بتصرّف طفيف)

الهوية الثّقافية العربية والإسلامية بوجه عام. فالتحديات التي تواجه العالم العربي والإسلامي واحدة والمسؤولية تقع على الجميع دون استثناء. وبذلك فإنّ الجزائر لا يمكن أن تستكمل استقلالها التّام في جميع المجالات الحيوية إلّا بالتّخلّص من هذه التّبعية، فلا تنمية ذاتية في إطار التّبعية اللّغوية والثّقافية(١).

إنّ عدم شعور الأفراد بأهمية وجود لغة واحدة تكون عنواناً لهويتهم الثّقافية، سيؤدي حتماً إلى "ضعف الاعتزاز باللغة العربية والميل للتباهي باللغة الأجنبية كلغة حضارة [وهو الأمر الحاصل لدى فئة من الجزائريين ولدى فئات من العرب]، وكذا تلاشي الهوية لأنّ العربية بالنّسبة لنا لغة موحّدة للأمة العربية [والإسلامية] ولغة الدين والشّخصية العربية بما تحمله من قيم روحية واجتماعية"(٢). ونقول ذلك دون إقصاء للهجات المحلية (اللهجات الأمازيغية) التي تعتبر اللغة الأم لعدد معتبر من الجزائريين. وأسمح لنفسي بأن أعيد قول الباحث **صالح بلعيد** –على الرّغم من طوله– كما هو؛ لأنّه عبّر عما جال في خاطري –ويعبّر فعلاً عما يريده كثير من الجزائريين وإن كان لبعضهم رأي آخر– فهو يرى في سياق الحديث عن استنكار بعض الممارسات التي تخلّ بالمسألة اللغوية في الجزائر، والتّنبيه إلى مواطن الخطر في مسألة الأمازيغية من خلال ممارسات بعض دعاتها، ضرورة "طرح بدائل نوعية لمازيغية وطنية تكبر من خلال تقديمها كما **هي دون تقزيم أو احتواء وإقصاء، وهذا في إطار التّكامل اللغوي** الذي عاشته منذ قرون في بلدها **وما اشتكت من لغة أخرى** أبداً؛ حيث تكاملت مع العربية بشكل تسامحي مقبول عند كلّ الجزائريين وبخاصّة القبائل (الكبرى

---

(١) ينظر: **التعدّد اللّغوي انعكاساته على النّسيج الاجتماعي**، ص٥٤.

(٢) باديس لهويمل ونور الهدى حسني، **مظاهر التعدّد اللغوي في الجزائر وانعكاساته على تعليمية اللغة العربية**، مجلّة الممارسات اللغوية، مخبر الممارسات اللغوية، الجزائر، العدد٣٠، ٢٠١٤، ص١١٧.

والصغرى) فكم من علماء قبائل بجاية وتيزي وزو والبويرة[1] كان لهم باع كبير في خدمة العربية وهم يحتكمون إلى المازيغية كلغة أم، وما شكّل صعوبة في التّواصل أو في التّأليف، وهذا يعني تجسيدهم للتداخل العلمي التّسامحي الذي يحدث بشكل طبيعي بين اللغات، تكامل مازيغي عربي لم يكن في يوم من الأيام يشكّل صراعاً، بل كان تصاهراً في المتون وفي المفهوم وفي كثير من الجبهات، ويكفينا دليلاً على ذلك **عدم ترجمة القرآن إلى المازيغية** منذ الفتوحات الإسلامية إلى غاية الألفية الثّالثة، وهذا يعني أنّ حال اللسان الكائن هو حال اللسان الذي يحمله الدين الإسلامي، وأنّ المازغيين يفهمون القرآن بلغته العربية أكثر من فهمهم إيّاه ترجمة إلى المازيغية، ويعني كذلك أنّ لغتهم لا يمكن لها أن تحتوي القرآن مهما علت وارتفعت، ولذا تصاغرت المازيغية أمام لغة الجبّار وما تكابرت في عهود الدول المازيغية التي عدّت من دول العروبة؛ التي كانت **تعني عند أجدادنا انتساباً واختياراً واعياً وعن دراية واقتناع؛ وهو اختيار حضاري** اختاره البربر تلقائياً، وبه تحوّلوا من مرحلة التّهميش إلى مرحلة السّيادة الذاتية، ومن الوجود بالقوّة إلى الوجود بالفعل"[2].

لذلك فإنّ اختيار شعب للغة معيّنة يقوم على أسباب متباينة؛ لكنّها تخدم مصلحته العليا ووحدته، وفي هذا الشأن يقول عبدالرّحمن الحاج صالح: "أمّا ظاهرة اختيار الشّعوب لمعيار لغوي لسبب خاص بهم يهمّهم ويهمّ وحدتهم فهي ظاهرة لا تخصّ شعباً دون شعب عبر التّاريخ، والاختيارُ فيها هو ظاهرة اجتماعية. فلا دخل للعلم في ذلك إنّما على العلماء أن يصفوا مثل هذه الظاهرة

---

(١) مثل: ابن معطي، الذي ألف ألفية النّحو، والشيخ الفضيل الورتلاني، وغيرهم كثيرون.

(٢) صالح بلعيد، **المازيغية في خطر**، مجلّة الممارسات اللغوية، مخبر الممارسات اللغوية، الجزائر، العدد ٠٣، ٢٠١١، ص١١.

وأن يفسّروها ولا يحكمون عليها بحكم ذاتي كعلماء بل كمواطنين يهمهم هذا الاختيار"[1] ولنا في تاريخ فرنسا عبرة ودليل على أنّ اختيار لغة معيّنة تحكمه أسباب مقنعة للبعض وغير مقنعة للبعض الآخر، ولكن المصلحة العامة دفعت بحاكمهم إلى فرض الفرنسية فرضاً بسلطة القانون على الرّغم من أنّها كانت لغة أقلية.

إنّ وضعية الازدواج اللغوي التي تتمظهر في منافسة الفرنسية للعربية وتفوقها في مجالات عديدة، ووضعية التعدّد اللغوي التي تتمظهر في وجود: اللهجات المحلية (الأمازيغية) والعربية بشقيها الدارج والفصيح والفرنسية؛ أدت إلى وجود تيارات فكرية منغلقة بعضها على بعض، حيث يتخذ كلّ تيار لغة مغايرة للغة الآخر. كما أدت إلى ظهور طوائف لغوية تصرّح بأنّ لها هوية لغوية وثقافة مغايرة، وهو ما يجعل هذه الجماعات تتآلف بعضها مع بعض وتتنافر مع الآخرين وهي بذلك كما قال محمّد الأوراغي: "تؤلف مجتمعات منغلقة اقتصادياً؛ إذ غالباً ما يهمل معيار الإتقان والجودة لفائدة الطائفية، فينتقى على أساسها المقاول في البناء والعامل في الورشة والمساعد في المتجر والمقهى. وهي أيضاً منغلقة اجتماعياً؛ إذ يقل التّصاهر بينها، وتضعف مشاركة بعضها بعضاً في الجمعيات المدنية، وفي الأعمال التّطوعية للتضامن الجهوي. ومنغلقة ثقافياً؛ فلا يطرب بعضها لموسيقى البعض الآخر، وبسبب الحاجز اللغوي لا تطّلع طائفة على ما قد يكون عند الأخرى من أعمال أدبية، ويظل حبيس العشيرة"[2] كما أنّ القَبَلِيَة التي حاربها الإسلام محاربة شديدة، تظهر

---

(١) عبدالرّحمن الحاج صالح، **العاميات العربية ولغة التخاطب الفصيحة**، مجلّة الممارسات اللغوية، مخبر الممارسات اللغوية، الجزائر، العدد ٠٣، ٢٠١١، ص٢٣٢.

(٢) محمّد الأوراغي، **التّعدّد اللغوي انعكاساته على النّسيج الاجتماعي**، ص٥٣-٥٤.

بشكل بارز في التّفاخر بأنساب وبأصول معيّنة والحط من أصول أخرى، وهي في الحقيقة جزء من أفعال المستعمر التي غذّاها البعد عن العقيدة الصحيحة، وعدم التمسّك بالمصلحة الجماعية ونبذ سمات كثيرة دعا إليها الإسلام كالأخوة والحب في الله.

وبذلك فإنّ النّزاعات الداخلية والعرقية والطائفية تؤثّر تأثيراً مباشراً في الهوية الثّقافية للمجتمع، فيجنح أفراده شيئاً فشيئاً إلى تبني هويات متباينة فيحدث تصدع المجتمع بدل لم شمله، وهذا يمثّل أحد أسباب التخلّف والتّقهقر.

فالهوية الثّقافية تتحدّد انطلاقاً من **علاقة كلّ أفراد المجتمع بعضهم مع بعض**، وتتشكّل بما تثمره علاقة الفرد الواحد بالآخرين؛ ولذلك فإنّ هوية الشّخص الواحد لا بد أن تحمل هُويّة المجتمع الذي يعيش فيه، أو تحمل على الأقلّ **بعضَ ملامح هذا المجتمع**. ولا يمكن أن يحصل ذلك ما لم ترتكز هذه الهوية إلى **جملة من المقوّمات**، وتتجلّى في **عناصر مهمة**[1] تمثّل جوانب الهوية الثّقافية بالنّسبة للأفراد والشّعوب. ويمكن تمثيل هذه العناصر في المخططين الآتيين:

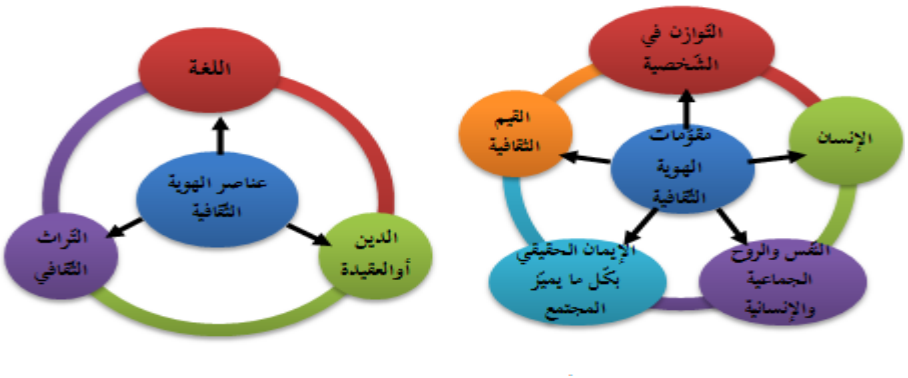

(١) يُنظر: محمّد زغو، **أثر العولمة على الهوية الثقافية للأفراد والشّعوب**، ص٩٤ وما بعدها. (بتصرّف).

تعتبر هذه المقوّمات صلب الهوية الثّقافية؛ **فالإنسان** –**الفرد** الذي هو جزء من جماعة بشرية معيّنة هو **محور الهوية الثّقافية** التي ينبغي أن تنطلق في الإسلام من المصلحة العامة وإيثارها دون أن تنسى المصلحة الفردية، حيث يجد الفرد انطلاقه من الآية الكريمة ﴿**ولقد كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وحَمَلْنَاهُم في الْبرّ والْبحْر**﴾ [الإسراء/٧٠]، حيث يشعر أفراد المجتمع بالتّوازن الروحي والمادي حينما تكون حياتهم حياة طبيعية وشخصيتهم شخصية متزنة لا خلل فيها. كما أنّ هذه الهوية ترتكز على ما يقدّمه الأفراد الذين يشعرون بانتمائهم إلى مجتمع بعينه ويؤمنون في الوقت نفسه بكل **ما يميّز هذا المجتمع من عادات وتقاليد وخصوصيات**؛ حيث تتغلّب الروح الجماعية والأخوة والإنسانية. لأنّ الإنسان بطبعه اجتماعي، وفي حاجة إلى التّفاعل مع غيره، فضلاً عن أنّ القيم الحسنة والأخلاق الفاضلة والعمل على نشرها تعتبر من أهم مقوّمات الهوية الثّقافية[1]؛ لأنّ توفر هذه المقوّمات كفيل بدفع عجلة التّنمية في البلاد بفضل توفر الاستقرار النّفسي والاجتماعي واللغوي حتى لو اختلفت الجماعات اللغوية، لأنّ الأمور التي تجمعها أكثر وأهم من الأمور التي تفرّقها.

وعليه، فإنّ الأمور التي تجمع بين أفراد الشّعب الجزائري والشّعوب العربية والإسلامية وتقوي أواصره هي: الدين أو العقيدة واللغة والتّراث الثّقافي؛ وهي التي تشكل عناصر الهوية كما هو موضّح في الشّكل المذكور آنفاً؛ حيث إنّ عنصري الهوية الثّقافية: **الدين أو العقيدة واللغة** يعتبران من الثّوابت الرّاسخة في الهوية الجزائرية التي تعتبر جزءاً من الهوية الإسلامية بكلّ أبعادها.

---

(١) محمّد زغو، مرجع سابق، ص٩٤.

لذلك فإنّ الغرب والصهاينة يدركون حقيقة يغفلها كثير من العرب والمسلمين، وهي "أنّ استعادة المسلمين لهويتهم وانتمائهم القرآني أكبر الأخطار وعليه فكل قوى التّغريب تعمل ضد هذا الاتجاه، وذلك بأسلوب الغزو الثّقافي المتمثّل في الاستشراق والتّنصير"(١)؛ ذلك أنّ العولمة الثّقافية تنافي تماماً مبادئ الإسلام.

وبما أنّ اللغة هي عنوان الهوية الثّقافية وهي اللسان الثّقافي الأساسي لهوية الأفراد والشّعوب الثّقافية، وهي عامل من العوامل المهمّة التي تميّز ثقافة عن أخرى، **وعنصر رئيس في إثبات الهوية وتأكيد وجودها**(٢)؛ فإنّ الهوية الثّقافية الإسلامية التي ترتكز على اللغة العربية، هي شاملة لكلّ الشّعوب التي تقول لا إله إلّا الله؛ وهي بذلك تعتبر المنافس للحضارة الغربية. لذلك عمدت السّياسات الاستعمارية بمعناها التّقليدي وتعمد سياسات الهيمنة الثّقافية واللغوية بمعناها الحديث "إلى خلق طبقات ثقافية مختلفة، بل طبقات اجتماعية تتماشى مع هذا التّفريق الثّقافي وهو أيضاً وسيلة إلى إيجاد طبقة من النّاس جاهلة بلغتها وثقافتها الوطنية، وربّما لا يدرك بعض النّاس أنّه السّر في التّخلّف العلمي والفني والصّناعي في البلاد التي عانت هذه التّجربة [وهو حال الجزائر]"(٣). كما أنّ السّياسات التّعليمية وطرائق تعليمية اللغة العربية المطبّقة لعقود متتالية كانت أحد أسباب جمود اللغة العربية وتأخرها وعدم قدرتها على مسايرة التّطوّر العلمي والتّكنولوجي.

---

(١) محمّد زغو، مرجع سابق، ص٩٥.

(٢) يُنظر: محمّد زغو، أثر العولمة على الهوية الثقافية للأفراد والشّعوب، ص٩٥ وما بعدها. (بتصرّف).

(٣) عز الدّين صحراوي، **اللغة العربية في الجزائر: التاريخ والهوية**، مجلّة كليّة الآداب والعلوم الإنسانية، العدد٥، جامعة محمّد خيضر، بسكرة– الجزائر، جوان ٢٠٠٩، ص٧.

وقد كان للإعلام بتياراته المتباينة أثر واضح في الفكر السّائد في المجتمع الجزائري، وفي تكريس الأفكار التي لا تخدم ازدهار المجتمع. وقد أدى الإعلاميون "دوراً بارزاً في تأطير المسائل الثّقافية التي طبعها التباين الكبير في النّظرة إلى المشروع الحضاري [للمجتمع الجزائري]، علماً أنّ مشاحنات هذه الفئة ازدادت في الفترة التي أعقبت الانفتاح الإعلامي (التّسعينيات)، وهي الفترة التي عبّرت خلالها الصّحافة عن مختلف مظاهر الصّراع الاجتماعي والإيديولوجي بمختلف أشكاله"(١).

وبدل أن يكون الإعلام وسيلة من وسائل لم الشّمل من أجل بناء مجتمع يقوم على الاختلاف المحمود، سعت المجموعات الإعلامية في الجزائر إلى الاعتراف "بشرعيتها وقوتها الاجتماعية والسياسية ... من خلال توظيفها لقضايا حسّاسة في الدولة والمجتمع والتي أخذت فيها **مسألة الهوية الثّقافية الحصّة الكبرى**، معتمدة كلّ الأساليب الاستراتيجية والإقناعية. كما أعادت إنتاج الصّراعات الرّمزية الموجودة بين الجماعات على مستوى الأحزاب والمدارس والجمعيات والجماعات"(٢).

وليس هناك شك في أنّ ذلك كلّه كان نتيجة حتمية لتراكمات الماضي بكل إيجابياته وسلبياته. فتأثير السّياسة الاستعمارية كان جلياً وواضحاً، وأثر الممارسات السّياسية كذلك واضح. فلم يتمكّن المثقّفون بكلّ اتّجاهاتهم (المفرنسون والمعرّبون) من التّخلص من عقدة الأنا والآخر، حيث إنّ كلّ اتّجاه

---

(١) أم الخير تومي، **ازدواجية النخبة في الجزائر النخبة الإعلامية كمثال**، «الجزائر إشكاليات الواقع ورؤى المستقبل» مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت– لبنان، ٢٠١٣، ص٢١٩.

(٢) السابق نفسه.

يظن نفسه الأصلح والأحسن والأصح. فلم يفكّروا في التّصالح مع أنفسهم ومع الآخرين من أجل مشروع حضاري شامل لكلّ الجزائـــريين بكـــل انتمـــاءاتهم الفكرية والسياسية والإيديولوجية واللغوية.

وعلى الرّغم مما جاء في صفحات هذه الورقة البحثيـــة، التـــي ركّـــزت الاهتمام على السّلبيات لضرورات منهجية بحتة، فإنّ تاريخ الجزائـــر ملـــيء بالصّفحات المضيئة التي يمكن أن يستفيد منها المجتمع، كدور جمعية العلمـــاء المسلمين في الحفاظ على اللغة العربية في الجزائر، وغير ذلك من المـــوروث الثقافي والعلمي الذي خلّفه أسلافنا.

نتائج:

نصل بعد تناول جملة من القضايا التي لها علاقة مباشرة أو غير مباشرة بانعكاسات التّعدّد اللغوي على الفكر والهوية الثّقافية الجزائرية إلى بعض النّتائج، وأهمها:

إنّ الانعكاسات السّلبية التي لها تأثير في المجتمع الجزائري ليس مردها – في اعتقادنا– إلى وجود الازدواجية أو التّعدّدية اللغوية، لأنّ هذه الظّاهرة يمكن استغلالها إيجابياً، بل لأنّ هذه التّعدّدية قد خلقت تعدّدية فكرية ولّدت اتّجاهات متباينة الأهداف. وهو الذي أنتج صراعات قد تسهم في تصدّع المجتمع إذا لم يتفطن أبناؤه إلى خطورة ذلك. ذلك أنّ فئات المجتمع وطبقاته في كلّ بلدان العالم تستجيب لحاجات مجتمعاتها بالإفادة من كلّ الإنتاج الإنساني لأنّ لها رؤية وهدفاً واضحاً. ولنا في اليابان خير مثال على النّهل من الحضارات الأخرى، حيث أعاد أبناؤها هندسة المجتمع الياباني بالتّخلص من شرور الماضي، فقصّة اليابان بعدَ الحرْب العالمية الثانية، "هي قصّةُ كِفاح وإعادة بِناء، حالها حال الدولة الألْمانية، التي دُمِّرتْ وقُسمتْ إلى دولتَيْن. صحيح أنَّ هزيمةَ اليابان في الحرْب العالمية الثانية أعادتِ اليابان للوراء عِدَّة عقود؛ حيث دمَّرَتِ الحربُ ٤٠% من البِنية التحتية، وتَمَّ تدميرُ كثير من المصانِع والمنشآت الحيوية، إلا أنَّ اليابانيّينَ اتَّبعوا سياسةً ذكية جداً، فبَعدَ أن أُخضِعوا للهيمنة العسكرية الأمريكيَّة، قَرَّروا تحويل الهزيمة العسكرية إلى نصْر اقتصادي، وعَمِلوا بجِدّ للوصول لذلك الهدف، وقد ساعدتْهم الأحداث العالمية في ذلك الوقت، وقدْ أحْسَنوا استغلالها"[1].

كان من أخطر **أنواع الصراعات الصّراع الفكري** الذي بدأ بالتشّكل في العهد الاستعماري حين اجتهد الاستعمار "في **امتصاص القوى الواعية في البلاد المستعمَرة** بأيّ

---

(١) محمّد فهيد الدوسري، بناء اليابان، موقع: http://www.alukah.net/culture ، بتاريخ: ٢٠١٨/٠١/٠١.

طريقة ممكنة، حتى لا تتعلّق بفكرة مجرّدة، ومن البديهي أنّ [الاستعمار] سيحاول أولاً تعبئتها لحساب فكرة متجسّدة تجسّداً تصبح معه أقرب إليه منالاً؛ لأنّه يمكنه مقاومتها إمّا **بوسائل القوة أو بوسائل الإغراء**. على أنّ الاستعمار لن يسلك هذا الطّريق فقط، بل إنّه سوف يواصل في الوقت **نفسه حربه ضدّ الفكرة المجرّدة** بوسائل ملائمة فيها مرونة أكثر، ويستعين من **أجل ذلك بخريطة نفسيّة العالم الإسلامي**... لمواجهة الوعي في تلك البلاد حسب مختلف مستوياته وطبقاته"[1].

فقد صار المجتمع مركزاً للصّراعات الفكرية بدل أن يصبح مركزاً للتآلف والعمل الجماعي المشترك من خلال البحث عن القضايا الكبرى التي تجمع أفراده، لأنّ ما يجمعنا أكثر. وإذا غابت الفكرة الواضحة كما رأى المفكر الجزائري مال بن نبي عاش المجتمع في مستنقع الصراع والخلاف، لأنّه وقع ضحية للسياسات الاستعمارية التي من أكبر شعاراتها «فرّق لتسود».

ليست المشكلات التي تعانيها المجتمعات العربية بوجه عام والجزائر بوجه خاص، نابعة فقط من تلك الآثار التي خلّفها الاستعمار، بل لأنّ هذه المجتمعات تخلت عن دورها الرّيادي بسبب ابتعادها عن الأفكار البنّاءة التي جاء بها الإسلام الذي يفتح المجال واسعاً للاختلاف، لأنّ **الاختلاف رحمة**. وبذلك يمكن اقتراح ما يلي:

١. توحيد الأهداف بين فئات المجتمع من أجل مشروع حضاري شامل لكلّ التّوجهات الفكرية، بالبحث عن نقاط التآلف والالتقاء من أجل مجتمع متطوّر ثقافياً، واجتماعياً، وفكرياً... إلخ.

---

(١) مالك بن نبي، **الصّراع الفكري في البلاد المستعمَرة**، **دار الفكر**، دمشق، ط١١، ٢٠١٤، ص١٥-١٦.

٢. استغلال الاختلاف الذي يؤدي إلى الإبداع والاجتهاد في حل مشكلات المجتمع: السّياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والنّفسية... إلخ.
٣. استرجاع الفكرة الواضحة التي غابت بسبب التّقليد الأعمى لكلّ ما هو غربي دون تمحيص أو تدقيق.
٤. الاستفادة من تجارب الدول المتقدّمة اجتماعياً وفكرياً ولغوياً، فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أولى بها.
٥. تدبير الشّأن اللغوي عن طريق وضع تخطيط لغوي ملائم، وذلك بجعل التّعدّد اللغوي خادماً للمجتمع لا هادماً له.
٦. لا بد أن يفقه العالم العربي والإسلامي أنّ مصيرنا واحد مهما اختلفنا، ونهضتنا لن تكون ما لم نحسن التّخطيط للقضاء على الصّراعات الفكرية التي تسببت في كلّ مظاهر التّخلف، وأخطر هذه المظاهر التّخلف الفكري.
٧. العمل على تحقيق الأمن اللغوي الذي يرتكز على عدم التّضييق على الأفراد في حقوقهم بما فيها الحق في الهوية واللغة وهو الأمر الذي تحدّث عنه عبدالقادر الفاسي الفهري في كتابه "أزمة اللغة العربية في المغرب".
٨. وفيما يخص اللغة العربية لا بد من تجديد طرائق تعليمها وتعلّمها بما يتلاءم وروح العصر، ولن يكون ذلك ممكناً إلاّ بـ:
   أ. تحيين المعاجم في موادها وطريقة عرضها، خاصة المعاجم التّعليمية.
   ب. الاهتمام بتوحيد المصطلح العلمي في كلّ التّخصصات: الأدبية والعلمية والتكنولوجية.
   ج. مسايرة الإنتاج العالمي بالتّرجمة، وهو عمل قام به أسلافنا حيث ترجموا علوم اليونان، والهنود... إلخ.

ولن يتم تحقيق كلّ ما ذكرناه –كما قلت في مقال سابق منشور في مجلة الممارسات اللغوية– إلاّ بوجود إرادتين: إرادة سياسية بيدها صنع القرارات،

وإرادة شعبية (أفراد المجتمع) يمكن أن تصـــنع المعجـــزات إن تـــوفرّت لهـــا الظّروف والشّروط الملائمة. فضلاً عن تخطيط محكم لإدارة الشّؤون العامـــة، وإدارة المسألة اللغوية التي ترتكز على فهم وضعية المجتمع الجزائـــري التـــي تتميّز ببعض الخصوصية، ووضعها في إطارها العام باعتبارها بلـــداً عربيـــاً أمازيغياً مسلماً.

أملنا أننا وفقنا إلى مناقشة هذا الموضوع الذي سيكون لنا معـــه وقفـــات أخرى، ومن زوايا أخرى إن شاء الله تعالى.

تمّ بحمد الله تعالى

ثبت المصادر والمراجع:

باللغة العربية:

١. أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثّقافي**، دار الغرب الإسلامي، ط١، بيروت، ١٩٩٨.

٢. باديس لهويمل ونور الهدى حسني، **مظاهر التعدّد اللغوي في الجزائر وانعكاساته على تعليمية اللغة العربية**، مجلّة الممارسات اللغوية، مخبر الممارسات اللغوية، الجزائر، العدد ٣٠، ٢٠١٤.

٣. صالح بلعيد، **المازيغية في خطر**، مجلّة الممارسات اللغوية، مخبر الممارسات اللغوية، الجزائر، العدد ٠٣، ٢٠١١.

٤. صحرة دحمان، **أثر تعليم اللغات الأجنبية في اللغة العربية ،مجلة اللغة والأدب ، قسم اللغة العربية وآدابها ، ٢٢ع ، جويلية ٢٠١٤**.

٥. صحرة دحمان، **ظواهر الاحتكاك اللّغوي في سلوك النّاطقين الجزائريين (الوسائل السّمعية-البصرية نموذجاً)**، جامعة الجزائر، معهد اللّغة العربية وآدابها، ١٩٩٩.

٦. صونية بكال، "**الازدواجية اللغوية**" ، مجلّة اللغة الأم.

٧. عبدالرّحمن الحاج صالح، **العاميات العربية ولغة التّخاطب الفصيحة**، مجلّة الممارسات اللغوية، مخبر الممارسات اللغوية، الجزائر، العدد ٠٣، ٢٠١١.

٨. عثمان الكعاك، **مراكز الثّقافة في المغرب**، القاهرة، ١٩٥٨.

٩. عثمان سعدي، **الجزائر في التّاريخ**، دار الأمّة للطباعة والنشر، الجزائر، ط/١، ٢٠١٣.

١٠. محمّد الأوراغي، **التعدّد اللّغوي انعكاساته على النّسيج الاجتماعي**.

١١. محمّد زغــو، **أثر العولمة على الهوية الثقافية للأفراد والشّعوب**، الأكاديميــة للدراسات الاجتماعية والإنسانية، العدد ٤، ٢٠١٠.

باللغة الفرنسية:

1. Dichy, La pluriglossie de l'arabe .

نقلاً عن:

L'écriture dans la représentation de la langue, et la lettre et le mot en arabe, Doctorat d'Etat, Lyon II, 1990.

2. A .Boukous, Bilinguisme, Diglossie et domination symbolique.
3. D. Coste et R. Galison, ***Dictionnaire de didactique des langues***, Hachettes, Paris.
4. J.B Marcellesi, "Bilinguisme, Diglossie, Hégémonie, problème et taches " in Langages, n° 61.
5. J.M.Charpentier, **Quand et où parler de bilinguisme et de diglossie**.
6. kkhaoula Taleb Ibrahimi, ***les Algériens et leur(s) langue*(s)** Elément pour une approche sociolinguistique de la société algérienne، Les Editions El hikma, Alger, 1997.
7. W. Mackey, Bilinguisme et contact des langues.